زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رتزقال اليسوعي

(تابع لما سبق)

انّ ترجمة زينب كانت تستلزم تمهيدًا يعرّفنا شيئًا من احوال تدمر في زمانها ويوقفنا على اخبار سلفها لا سيّما أذينة زوجها. فيسوغ لنا الآن العود الى ذكر هذه الملكة واتمام سيرتها. ولعلّ القارئ يؤاخذنا على بسط الكلام في هذه المقدّمات مع اننا اكتفينا فيها من الكثير باليسير ومن العدّ بالنزر. فنرجو منهُ غضّ النظر عن ملل اعتراهُ لما في التفاصيل التي سبقت من واضح الفائدة لادراك اخبار زينب العجيبة

قد مرّ ان زينب كانت زوجة أذينة الثاني فولدت لهُ ثلاثة اولاد اكبرهم وهبلات ثمّ خيران ثم تيم الله. فلمّا قُتل أذينة اخذت زوجتهُ بعنان الرئاسة بالنيابة عن وهبلات بكرها(١). وما لا ريب فيهِ انّ ملكة تدمر كانت اجدر بان تسوس الدولة الرومانية من كلّ قياصرة عهدها. وهذا قول اجمع عليهِ معظم المؤرخين حتى الذين سعوا في تنقيص شأنها وبخس حقوقها. والحقّ يقال انّ الله قد منح زينب من الصفات الملكية والمزايا السلطانية ما جعلها فريدة دهرها وبتيمة عصرها

وكنّا قدّمنا ان زينب احبّت ان تنتسب الى سيراميس وديدون وكلاوبترة تلك

---

١) ومن كلّ ما تقدّم من الكلام في نسب أذينة نستخلص الجدول الآتي (٧٠ : p. 35)

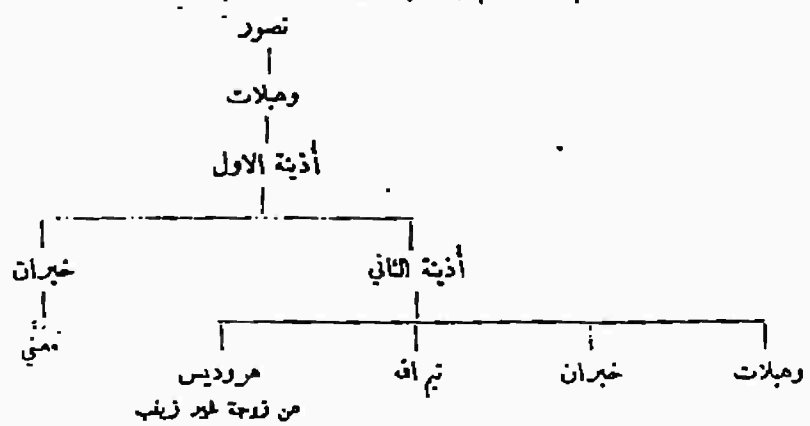

الملكات الشرقيات اللواتي اشتهرنَ بجمالهنَّ الفائق الا انَّها غلبتهنَّ بصفة اخرى تُعدُّ من افضل صفات النساء ألا وانَّها اتَّصفت بالعفاف والحصانة ومارست هذه الفضيلة الحسناء ممارسة عجيبة حتى انَّ المؤرخين لم يتردَّدوا في القول بانها بلغت في ذلك ما لا تبلغهُ النساء عادةً . وعلى ذلك اعتمد عرب الجاهلية فاوردوا في عفاف الزباء الاقوال التي ذكرناها في اوَّل مقالتنا

واماَّ قولهم بانها كانت اجمل نساء عصرها فامر مقرَّر اثبتهُ كتَبة اليونان والرومان . قال ترِبيليوس (١ : « انَّ جمال ملكة تدمر يفوق كل وصف . فترى لون وجهها ضارباً الى السمرة وحدقة عينيها كحلية كحدقة النسر ويلوح على شخصها من سمات القدرة ودلائل الحزم وأمارات الأنس واللطف ما تندهش بهِ العقول وتروق لهُ الابصار . واماَّ لون اسنانها فابيض يَقَق كانَّها درر . وصوتها جهور كانهُ صوت رجل »

واذا استثنيتَ جمال المرأة وعفَّة الوالدة فلا تكاد تعثر في ترجمة زينب على ما ينبئك بجنسيتها فيحقُّ فيها قول الشاعر :

ولو كان النساء كمثل هذه لفُضِّلت النساء على الرجال

وقال زوزيموس (٢ : « ان سيرة ملكة تدمر سيرة بطلٍ لا سيرة امرأة » . ولا غرو فقد قلنا مرارًا في معرض مقالتنا ان زينب لم تزل منذ اقترنت بأُذينة تصحبهُ في ساحة الحرب ومجال الصيد كانها احد قوَّاده . فلمَّا قُتِل زوجها وتبوَّأت تخت السلطنة لم تنقطع عن مثل هذه الامور بل اضافت اليها ما رأتهُ جديرًا بالملك العظيم وحريًّا بالقائد الشجاع الهمام

وكانت زينب اذا ارادت السفر امتطت فرساً فلم ترضَ بان تركب الهوادج الَّا نادرًا وكنتَ تراها تستكثر من المشي فتقطع مع عساكرها المسافات الشاسعة . وربَّما اجتمعت بقوَّادها ورُسُل الفرس ووفود الارمن لشرب الخمر فتنادمهم . بيد انَّهُ لمَّا كانت الحميا تلعب برؤوس جلسائها كانت زينب تحفظ نفسها من السكر ولم يُسمع عنها قطّ انَّها تملت بعاقرة بنت الحان . وكانت كلَّما استحضرت شيوخ المجلس واعيان البلدة للبحث عن امور المملكة تاخذ بيد ابنها وهبلات القيصر وهي متزيِّنة بملابس الفخر والجلالة . وعلى كتفيها المشملة القيصرية الارجوانية وعلى رأسها التاج الملكي

(١ *Trig. Tyr.*, 14

(٢ : ٤١٤

صورة زينب (عن تمثال وُجد في تدمر)

والزمت كلّ مَن مثل بين يديها ان يخرّ ساجداً ويخنو وجهه طاعةً لها. جرياً على عاده اكاسرة الفرس. وكانت مثلهم قد جمعت في ايوانها بعض الشيوخ من الخصيان فوكلت اليهم تدبير الامور الداخلية. واذا جالت في ساحات عاصمتها او دارت في ذلك الرواق المدهش الذي يفرق طوله كيلومترًا ونصفًا (راجع الصور السابقة ص ٦٣٧, ٦٤٦, ٦٨٩) كانت تصحبها فئة من الفتيات الكريمات النسب وهي تتقدمهن وتتوري بجمالهن كما يتوري الورد بها. الاشجار المجاورة له في حدائق الملوك. الّا ان سلطانة تدمر كانت في اغلب الاوقات تظهر نفسها لعيون جندها وتستعرضهم في ميادين حاضرتها وتمرّ امام صفوفهم الكثيفة وهي ممتطية لجوادها لابسةٌ لباس الحرب وعلى رأسها البيضة الرومانية تزينها الدرر الثمينة والجواهر النفيسة. وعلى غلالتها اليونانية اهداب منسوجة بأسحال ارجوانية وقد جرّدت احدى ذراعيها على دأب اليونان الاقدمين. وكان كلما رآها الاهلون على تلك الحال تحرّض الجند وتشجعهم كالقائد العظيم الخبير بآداب الحرب ظنّوها إحدى الإلهات فمدّوها كيزقة او كالاله المريخ الذائع ذكرها في حكايات الميثولوجية القديمة (١

بيد ان زينب لم تكتفِ بتلك الأبهة الظاهرة والجلالة الخارجية التي من شأنها ان تؤثر في مخيلة رعاياها بل زادت على ذلك اعمالًا حسنة ومآثر جليلة تدلُّ صريحًا على طول باعها في سياسة المملكة ودربتها الثاقبة في ضبط شؤون الدولة. وقد اتفق على هذا الوصف مؤرخو المغرب والمشرق مما قالوا بصوت واحد ان قوّة السياسة عند سلطانة تدمر عظيمة فلم تعترضها هضيمة وان الحلم في نفسها مقرًّا فلم يكن مع ذلك الحجرم مفرٌّ لان صرامة الملكة كانت عند اللزوم شديدة يتمال منها النهود ويخضع لها الاسود. واما الكرم فكان له في نفسها حُرمة كبرى كما في الملوك الذين ضُربت بهم الامثال. فلم تزل مع ذلك تقتصد الاموال الطائلة اقتصاد الرجل الحكيم البصير. وتجمع الكنوز النفيسة جمع القطن المستدرك

هذا ولم تُشغل ملكة تدمر بهذه المهمّات السياسية من تهذيب اولادها على الآداب السلطانية. واول ما اعتنت به تعليمهم اللاتينية كما يليق بمن يترشّح للجلوس على سرير الملك الروماني. فكانت هذه النيّة ثابتة في قلب زينب والامل في الفوز بالمرمى مستقرًّا في

(١ تريبيليوس Trig. Tyr., 29

نفسها حتى انها اعدّت عجلةً بهيّة من ذهب وفضّة وجواهر ثمينة وقد صمّمت ان تركبها اولادها ليدخلوا فوقها عاصمة الرومان. ذلك ما ورد في تآليف الاقدمين (١ وهو برهان واضح على ما اضمرت ملكة تدمر من الطمع الشديد في الاستيلاء على الممالك القيصرية قاطبةً. فكأني بها لم تكن لترضى باقاليمها الشرقية مع سعتها ورحبها (٢ اذ كانت تفوق مساحتها على بلاد الغرس (راجع ما قلنا سابقًا عن امتداد اقاليم أذينة الثاني). فلذلك طفق الاكاسرة يتقرّبون الى سلطانة تدمر وهم لم ينسوا ما اظهر لهم أذينة من البسالة واذاقهم من كؤوس الهوان والهزيمة فلم يتعرّض شابور ولا ابنهُ هرمز لمحاربة زينب بل عقدا معها الصلح والمعاهدة

واذا اعتبرتَ شهرة مدينة تدمر في تلك الازمنة فلا تشكُّ ان حاضرة زينب اصبحت موردًا يتقاطر اليهِ كلّ امم ذلك العصر على اختلاف اجناسهم والسنتهم ومذاهبهم وصنائعهم. فكانت تدمر في عهد مُلكها بمثابة برج بابل ثانٍ من حيث اختلاط اللغات والشعوب. اما سكّانها الاصليون فكان قسم كبير منهم ينتمي الى الامّة الآرامية الاصلية في تلك الاقطار والقسم الآخر كان يتركّب من عدّة اجانب نخصّ منهم بالذكر العرب والنبطيين والسوريين واليونان والارمن واليهود والفرس وغيرهم من شعوب اقاصي آسية الشرقية. الّا ان عدد العرب والنبطيين كان اوفر ممّن سواهم لقرب بلادهم من عاصمة زينب ومشابهة لهجتهم وعوائدهم بلسان التدمريين وآدابهم الخاصّة. والدليل الاصدق على قِدَم ولوج العرب والنبطيين بينهم بعض كلمات قديمة اكتشفت في كتابات تدمر مثالها لفظة فَحْذ ورُحَام وأَنجَد وزَيْد وأذينة وهجَر وما شاكلها ثمّ اسماء الاعلام كخير وسَعْد وسَعيد وكُهَيْل وكهيلة وجميل وجميلة ومعن وأنعم وما اشبه ذلك. وزد على ذلك صورة اسماء قبائل التدمريين كبني حنتي وبني حِلّة وبني هَلّه وبني حمدان (٣ وغيرهم من اسرات تدمر الشريفة كبني مَيْثاء ومتبول وقد ورد اسمهم على اقدم كتابة وجدها السيّاح في تدمر وهي كما مرّ قد نُقشت في السنة التاسعة قبل المسيح. وفي جميع تلك الاسماء دلائل واضحة على لهجة العرب ونفوذهم في حاضرة زينب

---

١) فوبيسكوس ٣٣ Aurel.

٢) راجع زوزيموس ١ و أوروزيوس ٧ : ٢٣

٣) وهي قبيلة قديمة تكرّر ذكرها في تواريخ المشرق

واما الشعوب المجاورة لتدمر فمن المتبادر ان اخصّهم قبائل العرب التائهة في بادية الشأم والجزيرة وشمالي بلاد العرب. اولهم بنو السميدع المشهورون في تواريخ تدمر وهم الاقدمون في بلاد العراق وبراري الشأم والحوران واليهم ينتمي آل أذينة الثاني زوج زينب الذي كان زعيم هذه القبيلة وقت احراز اخوهُ خيران وظيفة الشيخ الاعلى في وطنه. والمعلوم ان الرومان عند ما فتحوا بلاد الشام عثروا على هؤلاء العرب فاستمالوهم ووكلوا اليهم المدافعة عن حدود الاقاليم الشرقية فدعوا امراءهم « فيلاوك » اي زعماء قبائل

(ستأتي البقية)

الاسبان والاميركان

نظر في اخلاق الشعبين واخصّ علائقهما

للشاب الاديب جول كنسفليس احد تلامذة كليّة القديس يوسف

(وهي مقالة اقترحت على طلبة الفلسفة والبيان فنال صاحبها جائزة الشرف اختصرنا منها هذه النبذة لفوائدها)

لم تكن اميركة الجنوبية في غرّة هذا العصر الّا مستعمرةً رحبة الارجاء تحت حكم اسبانية تتصرّف فيها كما تشاء. وكان يحقّ وقتئذٍ لابنائها ان يردّدوا قول ملكهم العظيم كرلس الخامس وهو يفتخر بهذا الارث الجليل الذي خلّفهُ لهُ كرتيس ويقول: « انّ الشمس في سيرها لا تغرب عن ممالك الاسبان ». اما الآن فقد دالت دُوَل الايام وتغيّرت احوال الزمان مذ خيّمت الثورة على تلك المستعمرات فخلع سكّانها نيرَ العبوديّة وآثروا الاستقلالَ على الطاعة والحرّيةَ على الانقياد ولم يجنحوا الى السلم حتى بلغوا ما يبتغون

وبينما كانت دولة اسبانية تأسف على فقد املاكها في الخارج وتتلهّف على خوُرر قواها في الداخل كنتَ ترى دولة أخرى حديثة النشأة تنمو شيئاً فشيئاً حتى انهُ لم يمرّ عليها مئة سنة الّا واشتدّت شوكتها واستفحل امرها فبلغ ملكها من الشمال الى الجنوب وامتدّ من اوقيانوس الى آخر. على انّها طمست معالم الفِتَن وقلّمت اظفار الحرب الاهلية وهي اليوم متسربلة من المجد بالفخر وشاح ترتقي في معارج التقدّم والنجاح وعيناها شاخصة الى نجم